ذاكرة الآداب ـ ١ ـ

ابتداءً من العدد الحالي، تفتح «الآداب» نفسها على ذاكرتها، فتعود إلى ماضيها، تكشف مفارقه، وعلاماتِه المضيئة، وهناته، وملامحَه، وآماله، وإحباطاتِه. وإذ تعود إلى ذلك الماضي، فإنّها تسعى إلى وصل أجزائها، بالاغتناء من تجاربها، دون أن يعني هذا بالضرورة إيثارَ ما سلف منها على ما خلف، ولا جلْد ذاتِها على ما قصّرتْ في القيام به أربعين عاماً أو تزيد.

إنَّ ذاكرة «الآداب» ليست إلاَّ ذكريات جيل عربيّ على مشارف القرن الحادي والعشرين، يكشف أيّامه الماضية ـ بما فيها من عزيمة وشباب وأحلام وجموح ونجاح وإخفاق ـ على خلفه أو مجايليه الجدد. وقد يُعلّق صاحب المجلّة أو مدير التحرير أو طرف ثالث على بعض ما جاء فيها ـ نقداً أو نقضاً أو تثميناً أو إضاءَة. وسوف ترصد «الذاكرة» أهمّ القصائد، أو المقالات، أو القصص القصيرة، أو الأبحاث النقديّة، أو التمثيليّات القصيرة، أو النصوص الشاعريّة، التي كان لها وقعٌ في السّاحة الثقافيّة العربيّة آنذاك، أو صار لها مثل هذا الوقع اليوم.

س. س. ا.

محطّتنا الأولى في قطار الذّاكرة تبدأ من البداية. ففي العدد الأوّل من المجلّة كتب رئيس التحرير د. سهيل ادريس «رسالة الآداب» (كانون الثاني ١٩٥٣، الصفحة الأولى). وقد كتب الكاتب الكبير الراحل رئيف خوري في العدد التالي من المجلّة تعليقاً على «الرسالة». ونحن ههنا نقدّم للقارئ الرسالة ومقاطع من التعليق.. وهي تشكّل في مجملها ـ كما لا يخفى ـ حلقةً من سلسلة نقاشات لن تنتهي حول قضايا الالتزام والإلزام في الأدب.

رسالة الآداب

د. سهيل ادريس

في هذا المنعطف الخطير من منعطفات التّاريخ العربي الحديث، ينمو شعور في أوساط الشباب العربي المثقّف بالحاجة إلى مجلّة أدبيّة تحمل رسالة واعيةً حقّاً.

وصدور «الآداب» منبثقٌ عن وعي هذه الحاجة الحيويّة. أمّا تلك الرّسالة التي تحملها، فتقوم على الأسس الكبرى التالية:

تؤمن المجلّة بأنّ الأدب نشاط فكري يستهدف غاية عظيمة: هي غاية الأدب الفعّال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع، إذ يؤثّر فيه بقدر ما يتأثّر به. والوضع الحالي للبلاد العربيّة يفرض على كلّ وطنيّ أن يجنّد جهوده للعمل، في ميدانه الخاصّ، من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السّياسي والاجتماعي والفكري. ولكي يكون الأدب صادقاً، فينبغي له ألّا يكون بمعزلٍ عن المجتمع الذي يعيش فيه.

وهدف المجلّة الرّئيسي أن تكون ميداناً لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم، ويُعدّون شاهداً على هذا العصر: ففيما هم يعكسون حاجات المجتمع العربي، ويعبّرون عن شواغله، يشقّون الطريق أمام المصلحين، لمعالجة الأوضاع بجميع الوسائل المجدية. وعلى هذا، فإنّ الأدب الذي تدعو إليه المجلّة وتشجّعه، هو أدب «الالتزام» الذي ينبع من المجتمع العربيّ ويصبُّ فيه.

والمجلّة، إذ تدعو إلى هذا الأدب الفعّال، تحمل رسالة قوميّة مثلى. فتلك الفئة الواعية من الأدباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم يستطيعون على الأيّام أن يخلقوا جيلاً واعياً من القرّاء يتحسّسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكوّنون نواة الوطنيّين الصالحين. وهكذا تشارك المجلّة، بواسطة كتّابها وقرّائها، في العمل القومي العظيم، الذي هو الواجب الأكبر على كلّ وطنيّ.

على أنّ مفهوم هذا الأدب القوميّ سيكون من السّعَة والشمول حتّى ليتّصل اتّصالاً مباشراً بالأدب الإنساني العام، مادام يعمل على ردّ الاعتبار لكلّ وطنيّ، وعلى الدعوة إلى توفير العدالة الاجتماعيّة له، وتحريره من العبوديّات المادّيّة والفكريّة، وهذه غاية الإنسانيّة البعيدة. وهكذا تُسْهِم المجلّة في خلق الأدب الإنساني الذي يتّسع ويتناول القضيّة الحضاريّة كاملة، وهذا الأدب الإنساني هو المرحلة الأخيرة التي تنشدها الآداب العالميّة في تطوّرها.

وفي المنهج العامّ للمجلّة أن تعمل على إخراج كثير من الأقلام المبدعة التي تؤثر الصمت والاختفاء على الظهور في نشرات هزيلة لا تعطي فكرة جيّدة عن الأدب العربي الحديث. والمجلّة إذ تخرج هذه الأقلام من عزلتها، تتيح لأصحابها أن يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم، فيحاولوا الإبداع ويغنوا الأدب العربيّ بنتاج جديد.

وفي هذا النطاق كذلك، ستعمل المجلّة على إبراز حيويّة الأدب الحديث وخصبه وغناه، إذ ستشجّع الألوان المحلّيّة والطابع الخاصّ لكلّ أدب. وستضمّ صفحاتها نتاج أقلام تعتقد أنّها تعبّر بصدق وإخلاص عن خصائص الأدب في بلادها.

ومن أهداف المجلّة أن تثير من القضايا الفكريّة ما يحيي الحركة الأدبيّة الهامدة في البلاد العربيّة ويفسح المجال واسعاً للمناقشات والمطارحات والمعارك القلميّة. ولا بدّ من أن يكون لهذه الحركة أثر بعيد في الإقبال على الكتابة والقراءة كلتيهما. وهذا النشاط جميعه جديرٌ به أن يعطي الأجنبي فكرة صحيحة عن الأدب العربي الحديث ومشاركته في الحركة الأدبيّة العالميّة. والواقع أنّ النتاج العربي المعاصر يكاد يكون مجهولاً في الأوساط الأجنبيّة؛ ومردّ ذلك قبل كلّ شيء إلى فقدان مجلّة أدبيّة راقية تستعرض النشاط الفكري في البلاد العربيّة وتفسح المجال للأقلام القويّة.

وكما ستحاول «الآداب» أن تعطي الأوساط الأدبيّة الأجنبيّة صورة صادقة عن نشاط العرب الفكري، فهي ستهتمّ اهتماماً شديداً بالآداب الأجنبيّة، فتعطي القارئ العربي صورةً واضحةً عن أحدث النتاج الغربيّ، عرضاً ودرساً ونقداً، وبذلك توفّر لقارئها ثقافة عامّة مديدة الآفاق. ثمّ إنّها تتيح للأدباء والمفكّرين العرب أن يتفاعل نتاجهم بالنتاج الغربي، فيكتسب قوّة وعمقاً، فيما هو يحتفظ بطابعه وخصائصه الذّاتيّة.

←

وستُعنى المجلّة عنايةً خاصّة بالنّقد الأدبي وبالقصّة، فتحاول في الباب الأوّل أن تقوّم الآثار الأدبيّة، منها القديم والجديد، تقويماً موضوعيّاً مجرّداً يضع كلّ كتاب في موضعه الصّحيح، دون ما اعتبار لأحكامٍ سابقة لم تَمْلِها غالباً إلاّ رغبةٌ متغرّضة في التقريظ أو في التجريح. وسوف تشجّع في هذا الباب أيضاً جميع ألوان النّقد الذّاتي. أمّا في باب القصّة فستفسح المجال واسعاً للجيل الجديد من أدباء الشباب الذين يستلهمون واقع مجتمعهم ويصوّرون عصرهم خير تصوير.

بهذا كلّه، سيتاح «للآداب» أن تكون مرجعاً مهمّاً من مراجع الأدب العربي الحديث يستشيره كلُّ من رغب في الاطّلاع على النشاط الفكري العربي، ولاسيّما المستشرقون الذين لا تنقطع شكواهم من فقدان المراجع التي تمكّنهم من دراسة الأدب العربي المعاصر. وسوف تنشر المجلّة في كلّ عدد من أعدادها دراسات واسعة عن الاتّجاهات الحديثة في أدب الكتّاب العرب، في جميع ألوان نتاجهم، وستعهد بهذه الدراسات إلى متخصّصين ينتمون إلى مختلف البلاد العربيّة.

بتلك الرسالة، وبهذا المنهج، تتقدّم «الآداب» إلى قرّائها، آملة أن تجد عندهم التّشجيع الذي يمكّنها من متابعة حمل رسالتها وتحقيق منهجها.

* * *

أدب «الالتزام»

رئيف خوري

(. . .) أعجبتني من الدكتور سهيل ادريس هذه البلّورة الواضحة للرّسالة التي أرادها «للآداب». فهو يجهر بالدعوة إلى الأدب الفعّال الذي «يتصادى ويتعاطى مع المجتمع» وينادي «بأدب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصبّ فيه». وأعترفُ له بأنّ «يتصادى» هذه حيّرتني وقتاً، فمن معانيها على ذمّة المعجم: المعارضة والمقابلة والمعادلة والمداجاة والمداراة والمساترة والاهتمام بالشيء. واستغربتُ أن يكون المُراد واحداً من هذه المعاني. ثمّ فطنتُ إلى أنّ الكاتب إنّما نظر إلى الصدى بمعنى الصوت الذي يردّه الجبلُ على المصوِّت فيه. فقصد بقوله: «الأدب الذي يتصادى مع المجتمع» أدباً يتبادل الصّدى مع المجتمع، فيدوّي في المجتمع صداه كما يدوّي فيه صدى المجتمع. وإنّي لمن يوافقون على الانتفاع بأقصى ما يتيحه كيانُ اللّغة العربيّة من تصريف واشتقاق في سبيل استحداث ألفاظ جديدة تدور في الاستعمال. ولكنّي أقترح أن تُشرح كلّ كلمة مستحدثة من هذا النوع، كي تسرع إسراعاً إلى فهم القارئ، وكي تبرز له بروزاً يرسّخها في ذهنه فيساعد ذلك على نشرها وإدخالها حظيرةَ الألفاظِ الكتابيّة إذا استوفت شروطَ اللّفظة المستحقّة الحياة.

يريد الأستاذ ادريس، في وضوحٍ وإصرار، أدبَ التزامٍ ينبع من المجتمع العربي ويصبّ فيه، أدباً فعّالاً يتأثّر بالمجتمع ويؤثّر فيه. وليس الأستاذ ادريس هو الذي يريد ذلك وحده. فالدعوة إلى أدبٍ «موثق الأواصر بالمجتمع» «أدب انضوائي لا انطوائي ولا انعزالي»، «ينبثق من صميم المجتمع» و«لا يقبع في برج عاجيّ» و«يجابه مشاكل المجتمع الملحّة» و«يوجّه المجتمع»، إلى آخر صور التعبير التي يُقلب عليها هذا المعنى الواحد، دعوةٌ أصبحتْ نَمَطاً من أنماط الكلام شائعاً بين الأدباء ولا شيوع حديثِ الأزياء بين النّساء. على أنّ حديث الأزياء هذا قد يتنوّع ويخرج من النطاق الرتيب المملّ، وينقلب آخر الأمر إلى عمل، فنرى أثواباً تُفصَّل وتُخاط. ولكن يظهر أنّ حديث هذا الأدب غير الانعزالي، الذي ينبثق من صميم المجتمع، لا ينتهي ولا يتبدّل، ولا يحوّل إلى عمل كيما يبدأ فعلاً إنتاجَ مثل هذا الأدب. حقّاً، لقد طال حديث الطهاة عمّا سيطبخون لنا، فليشرعوا في الطبخ!

وبعد، ففي رأيي أنّ هذه الدعوة إلى أدب اجتماعي - وإنْ لم أكن براء منها - دعوةٌ لا تخلو من الوهم والإيهام. فالأدب في كلّ حال، وفي كلّ مراحل التّاريخ، نتاج اجتماعي مادام هو صنيع بشر،

←

ومادامت مادّته هي مادّة الحياة التي يحياها البشر وانعكاساتها وظلالها في الخيال والحسّ البشريّين. لنتصوّرْ ما شئنا من صنيع أدبي يبدو أشدَّ شيء انقطاعاً عن المجتمع، ثمّ لنتعرّف منشأه وعصره على نحو ما تكون المعرفة المعمّقة، وأنا الضامن أن نجد ذلك الصنيعَ الأدبيَّ متّصلاً بمجتمعه، وله مغزى اجتماعي يؤول إلى موقف انسجام أو معارضة من مجتمعه.

وهنا لا بدّ أن يسرع قائل إلى القول: «فمادام الأدب نتاجاً اجتماعياً في كلّ حال، ومادام الأديب لا سبيل له إلّا أن يتناول مادّةً لأدبه من المجتمع، فلِمَ لا يفعل ذلك، واعياً ما يفعل؟ إنّ هذا هو ما ندعو إليه!» ولكن من ذا الذي زعم أنّ الأديب حُظِّر عليه ذلك؟ على أنّ تاريخ الأدب وتجارب الأدباء تشهد بأنّ أروع الآثار الأدبيّة أكثر ما تكون مصادفات وُفّق إليها الأدباء على غير إدراك منهم، برغم أنّ المصادفات لا تخدم إلّا النفوس المهيّأة كما قال الحكماء. وبعبارة أخرى، إنّ النقّاد الكبار، الذين يعون حقّ الوعي شروطَ العمل الأدبيّ، من حيث الشكل والقالب، ويعون حقّ الوعي ما يريدون أن يضمّنوا هذا القالب والشكل من معنى اجتماعي، قلّما كانوا أدباء كباراً، وقلّما كان أدبهم في المستوى الرفيع؛ وإنّما هو أدب تقرأه فتقول إنّه مفيد، ووافٍ بالشّروط، وأنّه قد صُنع وفق الأصول، إلّا أنّك لا تحسّه مع ذلك ممتعاً رائعاً، ولا تظفر منه بذلك الطّرب الذي يشيعه في أجزاء النفس الأدبُ الممتع الرائع حقّاً.

وهكذا نرى أنّ ما نريده للأديب من عنصرٍ نسمّيه وعياً اجتماعيّاً لرسالة يبثّها خليقٌ في أفضل الحالات أن يجعل من الأديب ناقداً. فأمّا في الحالات الأخرى فيجعله صحافيّاً وربّما حطّه إلى درجة وكيل إعلانات. ذلك إلّا أن يكون الأديب عبقريّاً يستطيع أن يجمع بين الوعي وتلك النشوة التي لا أدبَ من دونها، ويمزج بين المنفعة والمتعة والروعة.

ثمّ يبقى أمر، وهو حقّاً عظيم الخطر: من ذا الذي يختار للأديب رسالته الاجتماعيّة، تلك التي نريده أن يبثّها بأدبه؟ أهو الذي يعي تلك الرسالة بنفسه ويختارها لنفسه مقتنعاً مطمئناً، أم أنّها تُفرض عليه من حكومةٍ أيّاً كانت، تسُدُّ عليه سبلَ التعبير إلّا أن توافق رسالته هواها وإلّا أن يطبّل ويزمّر لأعضائها. إنّ من المؤسف حقّاً أن يكون الدعاة من ذوي السلطان إلى أدب اجتماعي، لا يعنون في الحقيقة أدباً اجتماعيّاً ـ لأنّ كلّ أدب هو اجتماعي كما قلنا ـ وإنّما يعنون أدباً حكوميّاً، أو ما يلحق بنوع الأدب الحكومي من أدب حزبي ضيّق، إذ ما من حزب يحترم ذاته إلّا وهو يسعى ليصبح حكومة. وليس من الإسراف أن نقول إنّ الأدب الذي يكتفي بأن يوصوص من نُويفذة حكومة أو حزب هو شرّ من الأدب الذي ينظر من نافذة برج عاجيّ.

وهذا في الحقيقة أوجه الأسباب التي حملتنا على أن لا نقبل الدعوة إلى أدب «الالتزام» على علّاتها.

الأدب، وإن كان اجتماعيّاً، إنّما هو فعل فردٍ لا يقوم به إلّا من خلال نفسه. فالأدب صنيع نفسي، «عمليّة» نفسيّة، لا مفرّ ولا مناص[1]. ومن هنا صدق الذي قال إنّ في الأدب إطلاقاً، عنصراً غنائيّاً لا يُستغنى عنه. وبذلك يختلف الأدب عن كلّ عمل آخر: يهيئ لك الطاهي المدرّب لوناً من العجّة دون أن يتكلّف إلّا حركة يدويّة، ومع هذا تأكل عجّة شهيّة؛ ويملي عليك الكيميُّ الممرّن فصلاً في العناصر، في غير ما عناء عقلي شديد، ومع هذا تقرأ فصلاً موفّقاً في موضوعه. ولكن الأديب، بالغاً ما بلغ، ينبغي له في كلّ مرّة يكتب أن يعبّئ ذاته التعبئة النفسيّة التامّة التي يتطلّبها الإنتاجُ الأدبي. فالإنتاج الأدبي يستعصي برغم التكرار أن ينقلب إلى عمل آلي، أو عمل عقلي بسيط يكتفي بالتناول من الذاكرة. ومن هنا كان الأدب لا يخضع لأن يكون «بضاعةً» ينتجها الأديب «تحت الطلب» على قدر مرسوم ونوع معلوم. ومن هنا كان الأدب لا يسخّر للتقنين.

فإذا التزم الأديب فليلتزم الصدق لنفسه. وإذا التمس أدباً اجتماعيّاً واعياً فليلتمسه من خلال نفسه: أي من خلال تفاعل نفسه مع مجتمعه تفاعلاً حرّاً بقوّة وصدق وعمق. ثمّ فليذكر أنّ الأدب اجتماعي، فليس شيء إنساني غريباً عنه!

هذه بدهيّات في الأدب أصبح التنبيه عليها ضرورة حيويّة للأدب في وقت باتت الدعوة فيه إلى أدب «الالتزام» زيّاً من الأزياء. وأعيد القول إنّني لست براءً من هذه الدعوة، وأكبر الظنّ أنّي من هنا أبحْتُ لنفسي الحرّيّة في نقدها(...)

---

(١) بهذه المناسبة، أهنّئ «الآداب» على هذا الباب الذي سمّته «النّشاط الثقافي في العالم العربي»، وأشير بوجه خاصّ إلى ما حمل إلينا من أصداء مناظرة دراسة بين بعض أدباء بغداد على هذا الموضوع الذي نعانيه في مقالنا

د. خ.